6

نانت، اختفاء آخر

الأحد 22 ديسمبر في مدينة نانت حيث حطّ بي الرحال من ثلاثة أسابيع فقط. جاءني اتصال هاتفي وتبعته برقية: "رحلت أمنا، عاجل يجب القدوم".

– آلو... آلو

ألهث، أتلعثم بالكلمات.. على الطرف الأخر من الخط تصلني طرقات مطارق على باب بيتنا في الجزائر، ثمة من يحاول خلع هذا الباب الذي سبق وحصّناه لحماية حياة علي من الرصاص والسكاكين والفؤوس التي كانت تجول هنا وهناك وترقص رقصاتها الجنونية أثناء سنواتنا الأخيرة في الجزائر. طرقات تلاحقني في كل مكان، على باب نانت أرض اللجوء، في الجزائر

على باب مقاوم، في بير السبع على باب لا يفتح، اليوم تصرعني طرقات القدر. رحلت أمي وتحلل جسدها لكن المنفى باق هنا، قابع دائمًا هنا.

يعودني مشهد أمي وهي ملقاة في مشرحة باب الواد. أزحت طرف شرشف كان يغطي جسدًا بات جثة متعفتة، جيفة متحللة. سبق وأنذروني بأنه لا يجب النظر إلى الموتى احترامًا لهم، لكنني كنت قليلة الأدب ونظرت لتعفن هذه التي انجبتني كما شممت أيضًا رائحتها النتنة. نعم، أعتقد أنني فعلت هذا. في الحقيقة لم أعد أتذكر، لم أعد أذكر بالضبط ما فعلته عيناي ويداي بجسد أمي.

إنما، هل كانت هي حقًا؟ هي التي لم تستطع أبدًا العودة لديارها، هي وميلها المرضي للرجوع، هل ماتت؟ كم انتظرت حالمة قبل موتها العودة لمراتع الطفولة ولأحضان الأقرباء والأصدقاء. عودة كانت فرصتها تتضاءل مع مرور السنين ويحلّ محلها تحويل فالتفاف، التفاف فإياب... ثم التفاف بدون إياب.

ماتت. رحلت وحيدة، بعيدًا هناك، أكان هذا في 12، 15، أو 17 ديسمبر؟ لا أدري، لا أحد يدري، كانت برودة تخيّم على المكان ولا حرارة سوى تلك المنبعثة من مدفأة الغاز. حقيبتها الحمراء كانت هنا، سامسونايت كبيرة اشتريناها في دمشق صيف 1975، هذا الصيف الشهير الذي زرت فيه بيت النقب. ثمة أكياس أيضًا، وضعت فيها كثير من الاشياء، أثواب، أقمشة، كتب وأغراض أخرى منوعة، لم يعنِ كل هذا سوى أنها لم تعد

ترغب بالبقاء هناك، في الجزائر. زوجها كان قد رحل وولداها كانا في الشتات، شتات بين ألف شتات، وهي الآن لا تفكر إلا بالعودة. سترجع لفلسطين. لا تكترث إن كان هذا ممكنًا أم لا، لم تعد ضرورة لبقائها هناك، اتخذت قرارًا بالمغادرة، كان قرارها الدفين هي التي كانت ترفض دومًا كل القرارات، سواء تلك التي اتخذها عرفات أو منظمة الأمم المتحدة أو أوسلو أو كلينتون ونتنياهو. كانت وحيدة هناك ولم تعد تصغي إلى أي منطق.

ستُسأل أمي يوم القيامة لمَ تركت ديارها في بير السبع، في غزة، في مصر والسعودية وبلدان المغرب، بل لمَ غادرت بيتها؟ ستُسأل عن سر معاناتها من الروماتيزم وآلام الفقرات، عن سبب انجابها أولادًا. لمَ لم تعد أبدًا لديارها، ولمَ كسرت أخت اليهودي طبقها، طبق بير السبع. يوم الحساب يشبه كتاب تاريخ مدرسي، لا يحتوي على كل شيء والأهم من هذا لا يطرح الاسئلة المناسبة. بحثت في هاشيت إحدى دور النشر الفرنسية عما ذكروه عن قضيتي وعن تاريخ أمي وشعبي، هذا التاريخ الذي أعرفه بالكامل ولمست لمس اليد معاناة أمي منه حتى تعفنها. لكن هذه الكتب لا تقول كل شي، إنها تجمّل وتسيء وتقبّح. لا أنتظر منهم معرفة قصة أمي وحكاية منزلها الضائع وكل ما تبقى، لكن على الأقل ألا يشعروني بكل ذلك الإحباط حين قراءة رواياتهم الخاصة للأحداث! لم أحاول اكتشاف مطبوعات دور نشر أخرى فليس لدي أية أوهام بهذا الخصوص، أوهام حول صحة الحقائق كما أراها أنا على الأقل. على كل ثمة ما أنا متأكدة

منه تمامًا وهو أن التاريخ لم يُكتب بعد من وجهة نظر المهزومين، والذاكرة الوحيدة المتبقية تدور في رؤوسهم كغيمة تجمّعت من دخان كثيف.

احتفظت من أمي بذكرى صغيرة. آه! أيضًا هذه الرائحة لجسد متحلل. جهاز الراديو هذا الذي كان على الدوام قريبًا من أذنها لسماع الأخبار، الشرق الأوسط بالطبع لكن أيضًا أخبار المآسي الأخرى في التاريخ في جنوب أفريقيا وزيمبابوي وأنغولا وكوبا... باختصار كل أصدقائنا الذين يعانون ويلتعنون وكل حركات التحرر التي نشعر بارتباطنا معها. تعودني هذه الحقيبة الحمراء التي حضّرَتْها قبل موتها وطوت فيها بكل عناية منسوجات رائعة من فلسطين والسعودية ومصر وغيرها، ومعها ملابس طهور أخي وابني وثياب الحج وثوبين أو ثلاثة من عرسي، كل شيء انتظارًا للعودة مرتبا في سامسونايت قديمة حمراء من سوق الحميدية، في حقيبة الذهب. حقيبة العودة الأبدية.

كان أخي في أقصى حالات الغضب والألم، يفرّغ الزبالة ويفتش فيها محاولًا فهم سبب موتها. لم يعد هو، يبدو تائهًا منهكًا بنظراته الضبابية وصوته العالق في حنجرته. بقي صامتًا خلال الأشهر التي تلت رحيل أمي، لقد فقد صوته. بأي شيء ينفعه الصوت على أية حال؟ ليتحدث مع من؟ لم تعد هنا، هي التي كانت تتشرب كلماته، هي التي كانت تعبده، تخاطبه: "ضنايا، ضنايا فلذة كبدي! ضوّي، وحيدي، ابني الوحيد!". كانت تكنّ له حبًا جارفًا، على حسابي كما كنت أحس أحيانًا، لكن علي

أن أذكر أنني كنت جافة معها، أضع المسافات بيننا وأجبر نفسي على لعب دور القاسية المتمردة. أجهل دوافع تصرفاتي معها ولا استطيع شرحها حتى لنفسي. لعلني كنت أقاوم حبها وعطائها ولطفها الدائم، لعلني تقت لإثبات وجودي وذاتي بعيدًا عنها، لأقف في مواجهتها خلافًا لأخي اللين والمتساهل معها. يا لأمي التعيسة! أقولها الآن، كم عارضتها! كم كنت تعيسة وحمقاء!

وما ينفع قول هذا الآن؟ أمي لم تعد.

بعد موتها انفصلنا أنا وأخي، حيرتنا أمام غموض وقسوة هذا الموت جعلتنا نكره بعضنا. كل هذا الحب الذي كنا نشعر به تجاهها وتجاه بعضنا البعض، انقلب فجوة بيننا بعد رحيلها. كما لو كنا مسؤولين عن موتها وكل منا يلقي بالمسؤولية على الآخر. نعم كان موتها خطيئة لن تمحى أبدًا. انغلقت على ذاتي وأحزاني، كنت أغمض عينيّ وأضغط على نفسي وأحاول الاستقرار في حياتي بنانت على نحو أعمى. أبقى أحيانًا جالسة ساعات أمام النافذة أحملق في الفراغ أحاول أن أخفي عن أولادي معاناتي وأحاسيسي. أخي استيقظ من سباته بعد شهور ليفتح طاقة أخذت تدر عليه أموالًا طائلة، كان كملعون يركض ورائها بهوس وجدارة أيضًا.

لكن منذ ذلك الحين بات قبر أمنا بيننا، قبر لم نغلقه.

أظل أتساءل هل تناولت ما جعلها تموت على هذا النحو؟

أمي، أمي، ماما... هذه التي كانت جبلًا وعرًا، حاجزًا صلبًا، من كانت حقًا؟ مؤسسة مفتتة منهارة؟ فلسطين عجوزة وجميلة تغدو قبيحة في لمح البصر؟ لماذا أحسّ بحاجتي الماسة إليها اليوم؟ ألأني أشيخ؟ ربما لكن ليس فقط، الأم والوطن الأم مرتبطان معا بالألم وها قد رحلا معًا بكل مأساوية. اليوم حين أسير في شوارع نانت فإن شبحها يطاردني، تلفني بجسدها، بيديها الناعمتين الحنونتين، بوجهها الجميل وتنهداتها، بصور بيتها وأبيها.

الأمُّ لا تغادرُكَ أبدًا.

هذا ماتعلمته ومابتّ أدركه.